المقتطف

الجزء الثاني من السنة السابعة عشرة

١ نوفمبر (تشرين ٢) سنة ١٨٩٢ الموافق ١١ ربيع الآخر سنة ١٣١٠

النطق وتعلّم اللغات

قلنا في بعض الاجزاء الماضية ان صناعة التعليم قد بُنيت الآن على اسس علميّة كما بُنيت صناعة الفلاحة وصناعة الطب. فان الفلّاح قد حرث الارض ومهّدها وزرعها واستغلّها منذ الوف من السنين. والطبيب قد شخّص العلل وداواها وشفاها منذ قرون كثيرة. ولكن معرفتها الاجتهاديّة لم تكن مبنيّة على أسس علميّة فكان الفشل كثيرًا فيها ولاسيّما اذا حالت دون الطرق المتّبعة حوائل لم تكن في الحسبان اما الآن فقد كشف علم وظائف الاعضاء وعلم الميكروبات والكيمياء كثيرًا من غوامض الادواء ونواميس سيرها ونتائج فعل العلاج بها حتّى كادت صناعة الطب تصير علمًا آليًا مبنيًا على قواعد مقرّرة. وكذا علم الزراعة فان اصوله قد تحقّقت بواسطة علم النبات وعلم الكيمياء

وسنبسط الكلام في هذه المقالة على كيفيّة تعلّم اللغات الاجنبيّة ونذكر الطريقة العلمية المبنيّة على ما عُرف من وظائف الدماغ معتمدين في ذلك على ما كتبه الدكتور برشن وغيره من الثقات في هذا الموضوع العظيم الشأن

لكل المشاعر والحركات مراكز في الدماغ تتسلط عليها. ففيه مركز او مقرّ للبصر ولولاهُ لم ترَ العين شيئًا ولو كانت سليمة من كل آفة والمرئيات امامها. وفيه مركز او مقرّ للسمع ولولاهُ لم تسمع الاذن صوتًا ولو كانت سليمة من كل آفة والاصوات على مسمع منها. وفيه مراكز لحركات اليدين والرجلين والاصابع وعلم جرًّا ولولا هذه المراكز ما امكن تحريك هذه الاعضاء. واذا اعترى مركزًا منها مرض او آفة فتعطّلت وظيفته تعطلت معها وظيفة العضو الذي تحت سلطته. واربعة من المراكز المتقدمة تتعلق وظيفتها بتعلّم اللغات وهي

مركز السمع الذي نسمع بهِ الالفاظ ومركز النطق المتسلط على آلات النطق ومركز البصر الذي نرى بهِ الكلمات المكتوبة او المطبوعة ومركز الكتابة الذي تدرَّب بهِ حركات اليد في الكتابة . وهذه المراكز تنمو وتقوى بالاستعمال مثل سائر الاعضاء ولا بدَّ من معرفة وظيفة كلٍّ منها في النطق وتعلُّم اللغات قبل البحث عن الاسالب التي تقويها

واكبر معين اعان علماء الفسيولوجيا والفربنولوجيا الحديثة على تعيين مراكز الدماغ هو الادواء التي تعتري هذه المراكز فتعطل وظائفها . وكم من نفع جرَّهُ ضرٌّ

وفي الشكل المرسوم هنا صورة الجانب الايسر من الدماغ بعد ان نزع العظم عنهُ وفيهِ

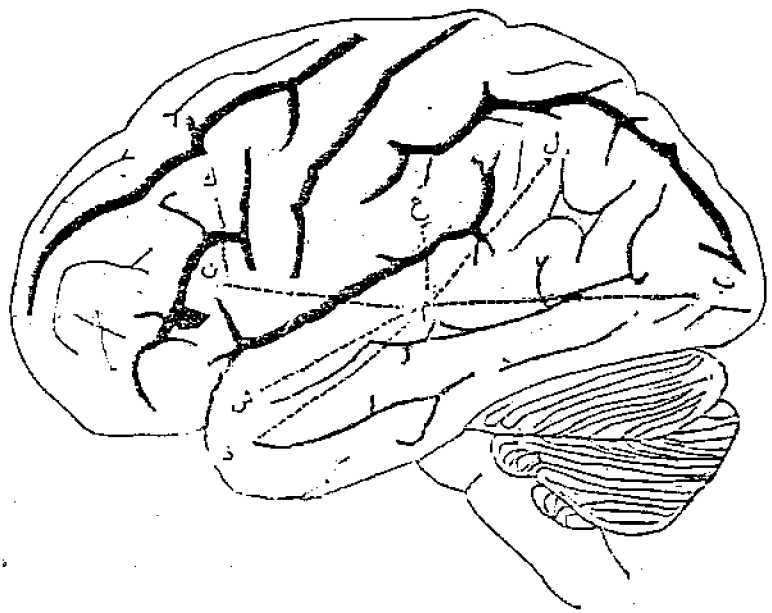

المراكز الاربعة المشار اليها آنفاً حيث الحروف م ون وب وك فعند الحرف م مركز السمع وعند الحرف ن مركز النطق وعند الحرف ب مركز البصر وعند الحرف ك مركز الكتابة وفيهِ مراكز اخرى غير مقطوع بها وهي مركز الشم عند الحرف ش ومركز الذوق عند الحرف ذ وهما باطنيَّان ومركز اللمس والشعور بالالم والحرارة عند الحرف ل ومركز الشعور العضلي عند الحرف ع . وبين هذه المراكز خطوط منقطة للدلالة على ما بينها من الالياف العصبيَّة التي توصلها بعضها ببعض وبغيرها من مراكز الدماغ وتنقل الحركات العصبيَّة من الواحد الى الآخر كما تنقل الاسلاك المعدنيَّة السيال الكهربائي . وفي الجانب الايمن من الدماغ مراكز

مثل هذه المراكز وتقابلها ولكنها ضامرة قليلة الفعل فلا نلتفت اليها الآن

فاذا دخلت امواج الصوت الاذن اتصلت الى عصب السمع و بلغت مركز السمع في الدماغ فتحركهُ حركة يشعر معها الانسان بالصوت كامر واقع في الخارج . ولكن اذا تحرّك هذا المركز بقوة عصبيّة واردة اليهِ من جهات اخرى في الدماغ لا من الاذن شعر الانسان بالصوت كمن يتذكّرهُ تذكّرًا . ولذلك فمركز الصوت وحدهُ لا يكفي لسمع الالفاظ وفهمها ايضًا بل لا بدَّ من ان ينتبه العقل الى ذكرى امور اخرى متعلقة بتلك الالفاظ . مثال ذلك ان لكلمة برتقال معنًى لان تأثير لفظها في مركز السمع ينبّه مركز النظر الى تذكّر لون البرتقال وشكلهِ وينبّه في مراكز اللمس ما تشعر بهِ اليد لو قبضت على برتقالة وينبّه مركز الشم والذوق الى ذكرى رائحة البرتقال وطعمهِ . وهذه الشعورات مصاحبة لصوت الكلمة وبها كلها تقوم صورة البرتقال الذهنيّة . و بقال للجاري العصبيّة التي تنتقل من مركز عصبي الى آخر التنبيهات المصاحبة . فاذا كثرت لُمنا للبرتقال وسمعنا لاسمهِ فكلما سمعناهُ بعدئذٍ او تذكرناهُ بعث مركز السمع تنبيهات شديدة الى بقيّة المراكز فتنتبه وتبرز ما عندها من الصور فيرى الذهن صورة البرتقال واضحة . ولكن اذا كنا لم نأكل البرتقال الاّ نادرًا ولم نسمع اسمهُ الاّ قليلاً او اذا لم نسمع اسمهُ الحقيقي بل سمعنا اسمًا آخر مشابهًا لهُ كانت تلك التنبيهات ضعيفة غير واضحة الدلالة وكانت الصورة الذهنيّة مغشّاة كأنها خيال الحقيقة . فلا بدَّ من تقوية هذه التنبيهات لكي تصير سريعة شديدة حتّى ترتسم بها الصور واضحة . ومركز السمع اشد المراكز لزومًا لتعلُّم اللغة كما سيجيء فهو احراها بالتقوية والتهذيب فان الطفل يبتدئ يسمع الاصوات من حين يولد ولا تنقضي السنة الاولى من عمرهِ حتّى يصير يفهم بعض الكلمات وحينئذٍ يأخذ يقلّد بعض الالفاظ التي يفهمها ثم يصير يستعملها وذلك يستدعي عمل مركز النطق فاذاً ها هُنا المركز وقوي جدًّا شبَّ الطفل فصيح اللسان في الكلام والخطابة

ولا بدَّ من الاستعانة بمركز السمع وقت النطق لانهُ لا بدَّ من تذكّر صوت الكلمة حينما يُنطَق بها . والنطق نفسهُ يقوّي تذكّر الصوت ولذلك فمركز النطق ومركز السمع يتعاونان ويقوّي احدهما الآخر ولكن مركز السمع يعين مركز النطق اكثر مما يستعين بهِ فهو اكثر استقلالاً منهُ . فاذا اصيب ولد بالصمم فقد قوة النطق ايضًا وصار اخرس ولو اصابهُ الصمم في السنة العاشرة من عمرهِ ما لم يُعتنَ بحفظ نطقهِ اعتناء خاصًّا . واذا اصاب الصمم شابًّا او كهلاً ضعفت قوة النطق فيهما مع ان فقد النطق لا يدعو الى فقد السمع

وحينما يبتدئ الولد في تعلم القراءة يكون مركزا السمع والنطق قد نمَّا فيهِ جيدا

وقت معها الالياف المصاحبة لها فيأخذ مركز النظر يشتغل معها فيصل التأثير من صورة الحروف الى مركز البصر ويتنقل حالاً الى مركز السمع بالالياف العصبيّة الموصلة بينهما فيذكّر صوت تلك الحروف واحدًا بعد الآخر ويعرف الكلمة الحاصلة من جمعها . ولا بدّ من القراءة بصوت عالٍ اولاً لكي يرسخ التأثير في الذهن وتشتد التنبيهات المصاحبة له . وتذكّر اللفظ يساعد اليد على الكتابة ويدرّبها عليها وعليه الاعتماد اكثر ما على صورة الكلمات الراسخة في الذهن

وكل القضايا المتقدمة مثبت بالآفات التي تعتري المراكز المذكورة وتبقى فيها بعد الموت فاذا اصاب الانسان آفةٌ اتلفت مركزي البصر في نصفي دماغهِ صار اعمى لا يبصر واذا لم تتلفها بل بقيا سليمين ولكن اتلفت الاعصاب التي توصلها بغيرها من المراكز بقي يرى ولكنهُ لا يعرف ما يراهُ وهذا ما يقال لهُ العمى العقلي او العمه

واذا كانت الآفة طفيفة حتّى بقي يميز الاشياء التي يراها ولو لم يميز الكلمات المكتوبة او المطبوعة قيل انهُ مصاب بالعمى الكلامي وهو ينظر الى الكتب المطبوعة بلغتهِ كما ينظر الى الكتب المطبوعة بلغة اجنبيّة لم يتعلمها ويبقى قادرًا على الكتابة ولو لم يبق قادرًا على القراءة فيكتب ما يريد ولكنهُ لا يستطيع ان يقرأ حرفًا مما كتب الاّ انهُ يبقى قادرًا النطق والفهم

واذا اصابتهُ آفة في مركز النطق كانت البليّة اشد فلم يعد قادرًا على الكلام بل صار يهذي باصوات او بكلمات لا معنى لها ولم يعد قادرًا على القراءة بصوت مسموع ولا على الكتابة ولا على فهم ما ينظر فيهِ من الكتب مع انهُ يرى جيدًا وقد يفهم معنى ما يراهُ بعض الفهم دلالة على ضعف العلاقة بين صور الكلمات المرئيّة ومعانيها

واذا اصابتهُ آفة في مركز السمع فهناك البليّة العظمى فانهُ لا يعود يسمع شيئًا وان سمع باذنهِ الجنى لم يفهم معنى ما يسمعهُ ولا يعود قادرًا على الافصاح عما في ضميرهِ مع ان مركز النطق يكون سليمًا وآلات النطق سليمة ايضًا . وقد ينطق بكلمات ولكنها تكون مشوشة او لا تكون مطابقة لمرادهِ . وذلك يدل على ان المعاني لا تنبه مركز النطق مباشرةً بل مركز السمع فيتذكر هذا المركز الاصوات وينبه مركز النطق اليها لينطق بها . وتتصل الآفة الى ملكة الكتابة لانها متوقفة على ذاكرة النطق

ويظهر من شواهد كثيرة ان صحة مركز السمع ضروريّة لفهم ما يقرأ وقد رأينا ان صحة مركز البصر لا تدعو دائمًا الى فهم المعاني وان مركز النطق غير متصل بفهم المعاني مباشرة والاّ لما

إلف النطق يتلف مركز السمع . فبفهم المعاني مرتبط بمركز السمع لان اصوات الكلمات تنبه الذهن الى المعاني قبلما تأخذ بقيّة المراكز المشار اليها في عملها او بعد ما تعتريها آفة تتلفها . وعلى هذا المركز اي مركز السمع يتوقف طبع المعاني في الذهن وسبب ذلك واضح وهو ان الناس اعتمدوا على السمع لفهم المعاني قبلما اعتمدوا على الكتابة بالوف من السنين فتوبت فيهم قوة السمع وعلاقتها برسم صور المعاني في الذهن قبلما خطّوا كلمة على قرطاس وصار مركز السمع مركز اللغة واليهِ مرجع جميع المراكز العصبيّة المتعلقة باللغة

وما تقدّم لا ينفي ان البعض يعتمدون في الفهم على الرؤية كما يعتمدون على السمع او اكثر ولكن عددهم قليل على ما يظهر بالنسبة الى الذين يعتمدون على السمع . ومعلوم ان كثيرين من الامميين وغير الاميين يستظهرون ما يسمعونهُ من الصلوات والدعوات ولو كان بلغة اجنبيّة وهم لو اريد تعليمهم ذلك في كتاب لتعذّر عليهم حفظهُ

والحقائق المتقدمة جديرة بان تراعى في تعلّم اللغات الاجنبيّة فان الطريقة المتبعة حتّى الآن لتعلّم اللغات تقضي باستظهار كلماتها وجملها وحفظ قواعدها من القواميس وكتب النحو . واذا كانت اللغات قديمة كاليونانيّة واللاتينيّة اقتصر المدرسون على ذلك وعلى قراءة بعض الكتب وترجمتها فيقيم التلميذ سنوات عديدة يدرس اللغة اللاتينيّة مثلاً ولا يحصّل منها بعد التعب الشديد قدر ما كان اولاد اللاتينيين يحصلون في سنتين وما ذلك الاّ لان طلبة هذه اللغة الآن يعتمدون على النظر وابناءها كانوا يعتمدون على السمع

هذا من قبيل اللغات القديمة . اما اللغات الحديثة فتعلمها أسهل لانها محكيّة وقلما يتعلمها طالب الاّ من شخص يستطيع النطق بها ولكنهُ اذا لم يشافه اهلها ولم يمرّن اذنهُ على سماعها بقي عملهُ لها قاصرًا دون الغاية المطلوبة فانهُ قد يحفظ من مفرداتها وجملها بطول الدرس والمزاولة ما يجعلهُ قادرًا على فهم ما يطالعهُ فيها ولكنهُ اذا طالع فيها ساعةً زمانيةً ثم طالع في لغتهِ ساعةً اخرى في كتاب مثل الكتاب الاول وموضوع مثل موضوعهِ وجد انهُ يطالع في لغتهِ في تلك الساعة اضعاف ما يطالعهُ في اللغة الاجنبيّة ويكون فهمهُ لهُ اصح وصور ما يفهمهُ اوضح في ذهنهِ بل قد يرى الصفحة في لغتهِ فيجيل فيها طرفهُ مرّةً واحدةً ويستوعب ما فيها واما الصفحة التي باللغة الاجنبيّة فيضطر ان يرى كل جملة فيها وكل كلمة حتّى يفهم معنى ما يقرأهُ . ويظهر الفرق واضحًا فيما اذا اراد التنبش عن كلمة او عبارة فانهُ يجدها حالاً اذا كان الكتاب بلغتهِ ولا يجدها الاّ بعد العناء الشديد اذا كان بلغة اجنبيّة . ولا يزول هذا الفرق الاّ اذا سمع اللغة الاجنبيّة باذنهِ كما سمع لغتهُ فانهُ يستسهل فيها حينئذٍ

ويستوضح معانيها كأنها لغتهُ التي ولد فيها

ومن تعلَّم لغة اجنبيَّة ولم يسمعها من اهلها او من الَّذين تعلموها منهم لم يدرك ما فيها من المعاني الشعريَّة والنكت البيانيَّة والعذوبة المتوقفة على اصوات الكلمات ونسبتها الى معانيها ولا شيئًا مما يدخل تحت مفهوم الفصاحة . بل كيف يدرك الفصاحة وهي شيء لفظي وهو لا يُحسن اللفظ . ولكنهُ اذا عاشر ابناء تلك اللغة بعد ذلك وسمع كلامهم فيها لم يفهمهُ اولاً ثم تعتاد اذنهُ سمعهُ فيصير يفهم بعضهُ ويستنتج البعض الآخر استنتاجًا ولا تمضي عليهِ ايام طويلة حتَّى يصير يفهم ما يسمعهُ جيدًا ويصير قادرًا على تقليدهِ ايضًا واذا طالع حينئذٍ كتابًا في تلك اللغة وجد من السهولة في فهم معانيهِ ما لم يجدهُ قبلاً . ولهذا السبب نجد ان التلامذة الذين تعلموا اللغة الفرنسويَّة في مدارس المرسلين الفرنسويين الذين يعاشرون تلامذتهم ويخاطبونهم باللغة الفرنسويَّة ويضطرونهم الى التكلم بها دائمًا هم اقدر على التكلم بها من تلامذة مدارس المرسلين الاميركيين على التكلم باللغة الانكليزيَّة مع ان هؤلاء يقتنون درس اللغة الانكليزيَّة والترجمة منها واليها ولكن اساتذتهم لا يضطرونهم الى التكلم بها

ينتج مما تقدَّم انهُ لا بدَّ من الاعتماد على السمع في تعلُّم اللغات الاجنبيَّة فيقتصر في اول الامر على التلفُّظ ببعض الكلمات البسيطة المألوفة . ويُعتنى الاعتناء التام في اتقان لفظها جيدًا حتَّى تألف الاذن اصواتها ولا تجد التباسًا فيها . ثم يؤتى باشياء مختلفة توضع امام طلبة اللغة ويعلَّمون لفظ اسمائها لكي يقترن ذكر اللفظ بذكر الصورة في الذهن واذا لم توجد الاشياء نفسها فيكتفى بصورها . وقد تظهر هذه الطريقة حقيرة لانها تستعمل في تعليم الاطفال ولكن الشاب والكهل لا يتعلمان لغة اجنبيَّة الاَّ كما يتعلمها الطفل

ويتلو ذلك القراءة بصوت عالٍ حتَّى تنطبع اصوات الالفاظ في الذهن ولا بدَّ من تدريب ما يُقرأ وترتيبهِ متدرِّجًا في معانيهِ حتَّى يفهم القارئ ما يقرأهُ . ولما كان الفهم متعذِّرًا على طالب اللغة في اول درسهِ لها وجب ان يعينهُ المدرِّس عليهِ ويحسن ان لا يدرس الطالب الاَّ وهو مع المدرِّس لكي لا يحفظ شيئًا خطأً حتَّى اذا اتقن اللفظ اتيح لهُ ان يطالع وحدهُ وان يدرس قواعد اللغة . ويجب ان يجتنب الترجمة وايجاد المرادفات بلغتهِ لان ذلك يضعف قوة فهمهِ لمعاني اللغة التي يتعلمها . ويجب ايضًا ان يتحرَّى كل فرصة لسمع اللغة من اهلها والتكلم معهم بها